

سُبُلُ الْحَقِّ فِي نَظَرِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِ

لِلدكتور محمد سويبي

ان العلماء المسلمين قد جعلوا العقل في المنصب الاعلى، وكثيرا ما صرّحوا « انه اعظم نعم الله عندنا، وانفع الاشياء لنا، واجداها علينا » (١) وهو « الشيء الذي به نتصور افعالنا العقلية قبل ظهورها للحس، فنراها كان قد احسناها، ثم نتمثل بافعالنا الحسية صورها فنظهر مطابقة لما تمثلناه وتخيّلناه منها » (٢) واستنتجوا من ذلك انه حقيق علينا « الا نجعل العقل، وهو الحاكم، محكوما عليه، ولا وهو الزمام مزموما، ولا وهو المتبوع تابعا، بل نرجع في الامور اليه، ونعتبرها به، ونعتمد فيها عليه » .

وجعلوا اسمى اغراضهم « طلب الحق لذاته »، وجعلوا طالب الحق « المتبّع الحجة والبرهان، لا قول القائل الذي هو انسان » (٣) .

وقال بعضهم: « البرهان القاطع لا يُدرا بالظواهر؛ بل يسُلط على تاويل الظواهر ». وقال متطرفوهم : « اذا تعارض العقل والنقل في مطلوب فيتبع العقل، ويتتبع المخلص في المنقول ليوافق المعقول، إن أمكن، والا يعد المنقول من قبيل المتشابهات » (٤) .

ولكنهم سرعان ما تيقنوا ان لا سبيل للعقل في تاويل بعض المسائل، وسرعان ما اضطروا الى تقسيم العلوم الى علوم نقلية والى

(١) الرازي : الطب الروحاني ص ١٨

(٢) أبو البقاء الحسيني : كتاب الكليات ص ٧١٥ وما بعدها

علوم عقلية . واعترفوا ان سبل الحق مختلفة متعددة بحسب ميادين البحث ؛ وقد تتضافر المصادر المعول عليها في مسألة من المسائل نياتي بعضها لبعض مساعدا ومعينا ...

ولخصوا هذه المصادر في الحس والحس والمقل والقياس والالهام والوحي الالهي .

فيصح البيروني عن غرضه في كتابه « الآثار الباقية » فيحصره في « استفراغ الوسع واستنفاد الجهد في الابانة عن مقصده على حساب ما بلغه علمه إن بسمع وإن بعيان وقياس » (٢) ويضيف « ان اقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة اخبار الامم السالفة وانباء القرون الماضية، لأن اكثرها احوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوصل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات (٣) .

ويجمع ابن الهيثم بين الحس والنظر فيقول : « فرايت انني لا اصل الى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الامور الحسية، وسورتها الامور العقلية » .

ويقول ابن سينا : « ان النفس ، بعد ان تستعين بالحواس ، ترجع الى ذاتها شيئا فشيئا (٤) » اي انها تعتمد اولا على المسادة ثم تتخلص منها مقدارا فمقدارا، كيما ترتقي الى احكام معقولة صرفة ، وكثيرا ما عاد ابن سينا الى هذا المعنى المتمثل في كون « الجسم لا يد منه لتستكمل النفس قوتها النظرية » .

« والانفس تحدث كلما تحدث مادة بدنية سالحة لاستعمالها اياها » (٥) .

(٣) الآثار الباقية ص ٤

(٤) المجاة ص ٥٠

(٥) الشفاء ج ١ ص ٣٥٤

والجسم بحواسه الظاهرة والباطنة هو الذي يقدم للعقل
الادراكات الجزئية المشخصة، فيحاول العقل بالتفكير فيها ان يستخرج
منها الادراكات الكلية والمعارف المرتبطة بها ...

ومن علاقة النفس بالبدن يقول ابو الثناء محمود بن عمر
الشيبياني المعروف بابن ربيعة (ت. بدمشق سنة ٦٥٢هـ / ١٢٨٧م)
من قصيدة شديدة الشبه بعينية ابن سينا (الطويل) :
اقول لنفسي حين ابدت تشوقاً الى العالم الاعلى، رويدك يا نفسي
محالاً ترومين النجاة وانست في المهالك من جنس الطبيعة والحس
ودونك بحرٌ ان تعديت لجبهه اهنست وكزيت بالخلاص من الحبس
فان رميت وصلنا نحو سنخك فاكثني غطاطك وانضي ما عليك من اللبس
ولا تقبلي نحو الكثيف فتحرمني مجاورة الاطهار في حضرة القدس
الى ان يقول :

وصلت على كره الى الهيكل الذي به اعتضت بالذعر الطويل عن الانس
وما كان هذا الوصل الا لترجمي منزهة بالعلم عن وصمة الوكس (٦)

ولئن زعم جابر بن حيان ان الصناعة « انما تكون لذي السراي
الصحيح، والقياس الواجب، والدرس الدائم للعلم الحق الواضح »، وانها
« انما تحتاج الى حجج وبراهين »، وان « البرهان اصدق شاهد واعدل
حاكم » (٧) فان معظم علماء العرب يقولون بوجود التجربة المادية،
وباستقراء الموجودات وتتبع خواص المحسوسات ؛ ومن امثالهم :
« المشاهدة اقوى دليل »، ويقول ابن البيطار : « فما صحّ عندي
بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالخبرة لا الخبر، ادخرته كنزاً سرياً، واعددت
نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنياً » (٨) .

(٦) عيسون الانبياء ج ٢ ص ٢٦٦

(٧) كتاب اسطقس الاس الاول نشرة هليارد ، باريس ١٩٢٨ ص ٧٠ - ٧١

(٨) من مقدمة كتاب الجامع لسردات الادوية والانذية

ويقول البيروني : « انما يلذّ العاقل لذّة نفسانية اذا لاحظها بعين البصيرة والاعتبار ، كما يلذّ الغافل لذّة جثمانية في الاستطباح والاعتناق ، والتقلب بين الخمر والخمار ... » ويستشهد بقسول الله تعالى ، وقوله الحقّ المنير : « ويتفكرون في خلق السماوات والارض ؛ ربّنا ما خلقت هذا باطلا » .

ويربط ابن سينا بين التجربة والتذكّر، وهي فكرة افلاطونية، فيقول : « اذا تكرر في احساسنا وجود لشيء مثل الاسهال للسقمونيا ، والحركات المرصودة للسماويات، تكرر ذلك منا في الفكر . واذا تكرر منا ذلك في الذكر حدث لنا منه تجربة بسبب قياس اقترن بالذكر . وهو أنه لو كان هذا الامر ، كالاسهال مثلا عن السقمونيا ، اتفاقيا فرضيا ، لا عن مقتضى طبيعته ، لكان لا يكون في اكثر الامر من غير اختلاف ، حتى انه اذا لم يوجد ذلك استندرت النفس الواقعة، فطلبت سببا لما عرض من انه لم يوجد . واذا اجتمع هذا الاحساس وهذا التذكر مع هذا القياس، اذعنت النفس بسبب ذلك التصديق بان السقمونيا من شأنها، اذا شربت، ان تسهل صاحبها » (٩) ويضيف : « ان التجربة ليست تفيد العلم لكثرة ما يشاهد على ذلك الحكم فقط ، بل لاقتران قياس به قد ذكرناه . ومع ذلك فليس تفيد علما كليا قياسيا مطلقا بل كليا بشرط » . ويواصل ابن سينا حكمه على التجربة بقوله : « ولسنا نقول ان التجربة امان عن الغلط، وانها موقعة لليقين دائما ؛ وكيف والقياس أيضا ليس كذلك ! بل نقول ان كثيرا ما يعرض لنا اليقين عن التجربة ، فيطلب وجه ايقاع ما يوقع منها اليقين » (٩) ومما نلاحظ في هذه الفقرات :

اولا : ان ابن سينا يقرن ما تكرر في احساسنا بالتذكّر ؛ وهي نظرية، كما اشرنا اليه ، مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ، ويلخصها الفارابي فيما يلي :

(٩) الشفاء المنطق ج ٥ البرهان ص ٩٥

« ان التعلّم تنكّر ، وان التفكير هو تكلف العلم ، والتذكر تكلف الذكر ، والطالب المشتاق متكلف ؛ فمهما وجد مهما قصد معرفته طلب دلائل وعلامات ومعاني ما كان في نفسه قديما ، فكانه يتفكر عند ذلك » . بل هو يتجاوز ذلك ويقول : « ان العقل ليس هو شيئا غير التجارب ، وكلما كانت هذه التجارب اكثر كانت النفس اتم عقلا ... » (١٠) .

ثانيا : انه يرى ان العلم الحق هو اليقين الذي تطمئن له النفس ، ويعترف ان المعرفة المعتمدة على التجربة وحدها انما هي معرفة نسبية لا تبلغ اليقين المطلق ، فكيف تكتسب المعلومات اذن ، وما هي طريقة الكشف عن الحقيقة ؟

يعود ابن سينا مرات الى هذا الموضوع في النجاة وفي الاشارات ، ويحصر المعرفة والعلم في التصور والتصديق ، واما آلتاهما فهما الحد والقياس . وفي ذلك يقول محمد بن المجلي بن الصائغ العنبري (الخفيف) :

ابلغ العالمين عنى بانى كلُّ علمي تصوّرٌ وقياسٌ (١١)
قد كشفتُ الاشياء بالفعل حتى ظهرت لي وليس فيها التباسٌ

والتصوّر هو العلم الأول ، ويكتسب بالحدّ وما يجري مجراه ، مثل تصوّرنا ماهية الانسان ؛ والتصديق انما يُكتسب بالقياس او ما يجري مجراه .

وطريقة العقل في الكشف عن الحقائق هي الحدس او الفكرة . يقول ابن سينا : « الحدس جودة حركة للذهن الى اقتناص الحد الاوسط من تلقاء نفسها : مثل أن يرى الانسان القمر ، وانه يضيء من جانبه الذي يلي الشمس على اشكاله ، فيقتنص ذهنه بحدسه

(١٠) التوفيق بين ارسطو واملاطون

(١١) عيون الانباء ج ٢ ص ٢١٦

حدا اوسط وهو ان سبب ضوئه من الشمس ... والفكرة حركة ذهن
الانسان نحو المبادئ للمطلب ليرجع منها الى المطلب » (١٢) .

ويروي لنا المسعودي في الموضوع ان الواثق بالله العباسي
سأل من حضر مجلسه من العلماء عن الطريق الذي ادرك الانسان به
الطب . فقال منهم قائل : زعم طوائف من الاطباء ان هذا الطريق
هو التجربة فقط ، وحدوه بان يتكرر الحس على محسوس واحد في
احوال متغايرة ، فيوجد بالحس في آخر الاحوال كما يوجد في اولها « (١٣)
ويقول ابن ابي اصيبعة : « انه قد يكون حصل منها شيء بطريق
الالهام كما هو لكثير من الحيوانات ... فالثور يفرق بين الحشائش
المتشابهة في صورها، ويعرف ما يوافقه منها ليرعاه، وما لا يوافقه
فيتركه ، مع نهمه وكثرة اكله وبلادة ذهنه » (١٤) . ويضيف « وبالجملة
فانه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة اكثر مما
حصلوه من هذه الصناعة » .

وهنا اشارة مهمة لما للصدفة والاتفاق من قيمة في
الاكتشاف العلمي .

ويواصل ابن ابي اصيبعة قائلا : « ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده
القياس بحسب ما شهدوه وادته اليه فطرحهم ؛ ثم انهم تأملوا ما
حصل لهم من الاشياء الكثيرة واستخرجوا عللها، والمناسبات التي
بينها فتحصّل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادئ منها يبني بالتعلم
والتعليم »، ويصنف ابن سينا النفس العاقلة مراتب تختص بميزات
مختلفة، فهي اولاً مستعدة لقبول الصور العقلية وتسمى اذن العقل
الهيولاني ، ثم هي تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية ، وهذه

(١٢) ثناء ، المنطق . ٢٥٩

(١٣) مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢٠ ط مصر

(١٤) عيون الانبياء ج ١ ص ٢٦

مرتبة العقل بالملكة .

وتنتقل من هذه المبادئ والمقدمات الى المطالب الفكرية البرهانية، وتصير العقل بالفعل، ثم تكون الصورة العقلية حاضرة بالفعل ينعم صاحبها بالنظر اليها ، وهي العقل المستفاد، وهي عقل النفس القدسية التي ترتقي الى منزلة العارفين والصدّيقين .

والى هذه المعاني يرمي ابن سينا حين يقول :

هذَّبَ النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهي للكل بيتُ
انما النفس كالزجاجة، والعلمُ سراج، وحكمة الله زيتُ
فاذا اشرفت فانك حي واذا اظلمت فانك ميتُ

فيرى ابن سينا ان « العملية العقلية لا بد منها لتكتسب النفس راحة الاتصال بالعقل الفعال ؛ فهي في الواقع ليست سببا مباشرا للتعرف ، وانما هي صقال للنفس فقط . واما المعرفة ذاتها فهي نفس ؛ او اذا شئت فقل : انطباع في النفوس المجلوة المتهيئة للارتسام ، وهذا يشمل سائر المعارف حتى المعقولات الاولى ؛ فحصلها فيض عالمي ونور الهي (وفي الخلاصة) اذن فالجسم لا بد منه للعملية العقلية ، التي لا بد منها لصقل النفس ، الذي لا بد منه للاتصال بالمثل الفعال وادراك المعارف منه . . . » وفكرة الاتصال بالمثل الاماني ، ليست عند ابن سينا مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ؛ بل هذا القرآن بين يديه مغمم بقصص الانبياء وبأخبار الرسل الذين اتصاوا بالله سبحانه ؛ وفي القرآن قصة العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علما . . . « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » .

فالنفس والجسد في مبدا امرهما مرتبطان زمنيا ، والنفس مغايرة للبدن، وهي جوهر روحي مجرد ، تتأثر في ملكاتها الخلقية بالجسد، والنفس باقية بعد انحلال البدن ، فاذا ما فارقت وزالت عنها العوائق المادية وانسأقت الى اسواقها ، الى الكمالات ، فهي تتصل بالفيض الالهي . وذاك الشأن بالنسبة الى العارفين المنتزهين ، « فاذا وضع

عنهم درن مقارنة البدن وانفكوا عن الشواغل ، خلصوا الى عالم
القدس والسعادة ، وانتقشوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهم اللذة
العليا « (١٥) .

ويرفع ابو نصر الفارابي الدعوات في هذا الشأن الى الله ،
جلّ وعلا، مبتهلا بقوله : « امنحني فيضا من العقل الفعال ، يا ذا
الجلال والانضال ؛ هذب نفسي بانوار الحكمة ، واوزعني شكر مسا
اوليتني من نعمة ؛ ارنسي الحق حقا والهمني اتباعه ، والباطل باطلا
واحرمني اعتقاده واستماعه؛ هذب نفسي من طينة الهيولي ، انك
انت العلة الاولى ، (الكامل) :

هذب بفيض منك ربّ الكل من كدر الطبيعة والعناصر عنصري
... واطلّع على ظلماء (نفسي) شمسا من العقل الفعال ،
واميط عنها ظلمات الجهل والضلال . واجعل مسا في قواها بالقنوة
كامنا بالفعل ، واخرجها من ظلمات الجهل الى نور الحكمة وضياء
العقل ... » (١٦) وهذا ابن الهيثم عند وصفه لطريقته في البحث
العلمي، وبعد عرضه لما تحلّى به من الصبر والتحفّظ والنقد والتريث،
يتوجه في البدء والنهاية الى قوة متسامية ، لتمتد رعايتها على كافة
الخلق ، يسألها الهداية والعون والتوفيق : « وما نحن مع جميع ذلك
برآء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر
ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد المعونة في جميع
الامور » .

فهو العالم الحق ، العامل المجتهد ، الطموح المتواضع ، العارف
حق المعرفة بمنزلة البشرية وحدودها ، المؤمن بأن لا هادي لمن
لم يهده الله .

(١٥) الاشارات ج ٢ ص ١٩٦

(١٦) عيون الانبياء ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

مالمعلم في نظره جَدَّ وطلب من جهة ، وحنس والهام من جهة
أخرى؛ وهو نور يقذفه الله في أفئدة من اصطفى من عباده ، شارحا
صدورهم كاشفا لهم الخفايا والاسرار .

« فإذا ثبت هذا وجاز ان يكون في الناس عالم ومتعلم، وإمام
وإماموم، وان تكون فيهم مراتب ودرجات، جاز ان يختص الله بحكمته
ورحمته توما ويصطفاهم من خلقه، ويجعلهم رسلا اليهم ويؤيدهم،
ويفضلهم بالنبوة ويعلمهم بوحى منه ما ليس في وسع البشر (ان
يعلموه ليعلّموا الناس ويرشدوهم الى ما فيه صلاح امورهم دنيا
ودنيا) » (١٧) .

ويؤاخذ البيروني ابا بكر الرازي على كتاب « سر الاسرار »
بعد ما كان متشوقا اليه نيفا واربعين سنة ، ولخص قوله فيه
بالآية الكريمة : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) .
وللرازي كتاب فيها يرومه من اظهار ما يدعي من عيوب الاولياء .
فيقول ابن ابي اصيبعة في شأنه : « وهذا كتاب ، ان كان قد ألفه
والله اعلم ، فربما ان بعض الاشرار المعادين للرازي قد ألفه
ونسبه اليه ليسيء من يرى ذلك الكتاب او يسمع به الظن بالرازي ...
حتى ان بعض من يذم الرازي، بل يكفره، كعلي بن رضوان المصري
(ت ٤٦٠ هـ) (١٨) وغيره يسمون ذلك الكتاب : كتاب الرازي في مخاريق
الانبياء » (١٩) .

ويقول ابن سينا عن محمد بن زكرياء الرازي انه « متكلف

(١٧) من كتاب اعلام النبوة لابي حاتم الرازي في الرد على محمد بن زكريا الرازي
وقد اتهم بانكار النبوة . رسائل الرازي ص ٢٩٩

(١٨) أبو الحسن علي بن رضوان الطبيب المصري ، ينسب اليه « كتاب في الرد على
الرازي في العلم الالهي واثبات الرسل » ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٠٥

(١٩) عيون الانبياء ج ٢ ص ٢٥٩

فضولي في شروحه في الالهيات وتجاوز قدره في بسط الجراح، والنظر
في الابوال والبرازات ، لا جرم فضح نفسه وأبدى جهله فيما حاوله
ورامسه « (٢٠) .

ففي الخلاصة ان طلب العلم طموح وشوق للخروج من العمرة ،
و « لادراك ما به تنكشف تمويه الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك
المفتنون » . فكيف يصل الانسان الى اليقين وكيف يقف على الحق
الذي لا يمازجه شك ؟

لا شك ان العقل وسيلة قوية ناجحة ، « جانا بها الله لننال
ونبلغ من المنافع العاجلة والاجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيلسه وبلوغه » .
والحس منطلق للمعرفة لا يبد منه ، والحدس والالهام لهما دور مهم
في سبيل الحق ، والتجربة والرياضة معينان قويان يخرجان نفس الانسان
الى كماله الممكن له في حدّي العلم والعمل ...

ولكن من فوق كل ذلك فيض رباني ، والهام من الله يهدي
به من يلهم ، فيوقظ النفس من نومها ، « ويلهمها فجورها وتقواها » (٢١)
ووحى اختص به انبياءه الصديقين وفضلهم على الناس جميعا ،
وجعلهم أدلة لهم وايمّة يقتدون بهم ... فخلصوا الى عالم القدس
والسعادة وانتقشوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهم اللذة العليا ؛ نفوس
كاملة اتصلت بالفيض الالهي عند سدرة المنتهى تحت عرش الرحمان
وفي عالمه الاول : ناظرة الى ذاته (وجوه يومئذ ناظرة الى ربها
ناظرة) (٢١) .

د. محمد موسى

(٢٠) انظر مقال حسين نصر « مناظرة بين البيروني وابن سينا » ، رسالة اليونسكو ،
جويلية ١٩٧٤ ص ٢٧ - ٢٩ ورسائل الرازي ص ٢٩٠

(٢١) سورة الشمس ، ٨